# المتنبي وكافور

بقلم محمد هاشم عطية
المدرس بدار العلوم

منذ أكثر من عام ، والناس يتحدثون عن أبي الطيب ، ويتبارون فى تكرمته والاحتفال بذكراه الألفية . وفى مصر وفى غيرها من البلدان العربية ، وفى الصحف والأندية ، وبين الكتاب والشعراء ، وفى المعاهد العالية والمحاضر الكبرى - يتطرف المتأدبون بدراسة أدبه وتجديد العهد بالبحث فى تاريخه وشعره ، بوضع المحاضرات والرسائل ، وبالترجمة والتأليف والبحث ( حتى خصته « مجلة » المقتطف الغراء بعدد من سنتها الحاضرة ، فى بحث ضاف ، وتحقيق جديد ، لباحث من نوابغ أدباء العربية . )

ولم يزل كل شاد فى الأدب ، وكل متمثل إلى الشهرة ، يتخذ من البحث فى حياة المتنبي وسيلة إلى الذكر ، ومادة للتأدب ، ومثارا للنقد والجدل ، وماخلا عصر من عصور العربية ، ولامصر من أمصار المشارقة من الإغراق فى آثار هذه العبقرية الفذة ، والتحلى بمطلق التناول لهذه الشاعرية الفاخرة ، وتجرد كثير من العلماء فى أزمان متعاقبة ، لوضع الأشعار ، وتصنيف الكتب ، فى التقريظ والنقد لأدب أبي الطيب . واعترضه الباحثون بالموازنات ، وتحقيق الوساطة بينه وبين شعراء عصره وغير عصره ، وزخرت خزائن الكتب بهذه الشروح والبحوث ، حتى لم يبق لقائل موضع ، ولا لكاتب متعلّق ، وكان لك أن تقول : إن كل مايتعالم به أهل زماننا ، أو يدعونه فى أبي الطيب من استخراجهم لدخيل ، أو تحصيلهم لفائت ، أو فصلهم فى خلاف ، أو استدراكهم على باحث ، إنما هو حديث معاد ، ونقل عن كتاب إلى كتاب . وكذلك كان لك أن تقول : إن من حسن البحث فى هذا العصر أن يتناول معه غيره ممن جروا فى شأوه ، أو تخلفوا عنه ؛ ليعرف الناس عنهم بعض ما عرفوا عنه ، وليشتد تمييزهم لمكان الفرق بينهم وبينه ، وبذلك يصلون أرحاما

مجفوة ، ويفتحون من الأدب كنوزاً دفينة ، ويحسنون الخلافة فى إرثهم عن السلف ، مما لا تزال أسراره مصونة ، ومحاسنه مجهولة ، وهنالك يرى الناس وسع المتأدب ، وجهد الكاتب ، ويعرفون لهم الفضل ، ويجزونهم الخير ، وأما المتنبى فيكفى أن يتدارس الناس أشعاره ، ويحفظوا أكثر ما يقدرون عليه من قلائده ، ويتفرغوا لطواله وأوابده ، بالحوافظ القوية ، والذاكرة القادرة ، توخيا لإقامة السياق ، وحرصا على السلامة من هجنة النسيان ، لأن الشعر خاصة لا يستغنى عن نصه بالحكاية ، ولا تجوز روايته بالكلام ؛ ولأننا صرنا إلى حال لا نجد فيها الذين يستطيعون الإلقاء من الغيب ، ولا الذين يمتعون المحافل بحلاوة المجاذبة ، ولا الذين كانوا يملئون السامر بطرائف الأخبار ، وغرائب الأشعار ، استملاء من حوافظهم ، وقراءة من سجل صدورهم ، فكانوا يحببون للناس الأدب ، ويكثرون بمثل هذه المطارحات الممتعة عشاق اللغة . فيلقون بهذا اللهو إلى الناس أدبا ، وينشئون لهم ثقافة عربية ؛ لاضطرارهم إلى التعقب على أنفسهم ، والوقوف مما يروونه موقف الممتحن المتثبت ، حتى يتألف لهم من شوارد الأدب ، ولطائف الفطن ما يعظم به موقعهم ، ويشوق النفوس إلى سماعهم ، والأخذ من كلامهم ، وهم الظرفاء وأصحاب النوادر الذين يتطيب الناس بملحهم ، ويعمرون بهم مجالسهم ، ويزكون بأدبهم أنفسهم ، ولقد أردنا بمقالنا هذا أن ننبه إلى هذه الحالة ، ونثير أشد الاهتمام بالرجوع اليها ، لتحصيل الحفاظ من أثبات اللغة والأدب ، ولأننا نعتقد أن حظ الرواية من عناية المتأدبين لا ينبغى أن يكون أدنى من شغفهم بالتحليل الأدبى ، والدراسة الحديثة ، والعقلية الخصبة ، والقصص الفنى وغير ذلك ، مما تسمع له جعجعة ولا ترى طحنا ؛ لاعتقادنا بأن ذلك أزين لهم ، وأشبه بأمرهم ، وأحرى أن يجدوا من هذه الذخائر عند الحاجة عتادا حاضرا يكسون به سوانحهم ، ويحملون به منطقهم ، وإن كنا بذلك قد أقحمنا أنفسنا فى غمار المكرمين لأبى الطيب ، والمحتفلين بتخليده ، ونحسب أننا بما سنقضى به من بعض ما لاحظناه فى أكثر ما كتب عنه فى أيامنا الحاضرة ، سنكون أبلغ احتفالا وأسنى تكرمة ، على حساب أننا

لا ننفي عنه عيبا ، ولا نضيف اليه مفخرا جديدا ، ولا ندعي أننا سنزيل من أمره لبسا ، أو نحل متعقدا ، إلا النظر فى هذه المحاولة التى يراد بها إسناد المتنبي إلى غير أبيه ، واستخراجه من غير معدنه ، والادعاء بأنه علوى النسب ، هاشمي الأرومة ، والالتجاء فى ذلك إلى التأويل للحكم ، والاتهام للثقة ، والانتحال لكل حيلة لتحصينه من كل تهمة ، وتبرئته من كل مذمة ، والتصدى لاحتمال المكروه عنه ، مع أنهم يعلمون أن وضع الرجل فى غير موضعه ، وإعطاءه ماليس من حقه ، تهجين لشأنه وذم له ، يظنون أن من ذكر المتنبي فأحسن اليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعه ستارا على عيبه - فقد أوتى الحكمة ، وبلغ نهاية الفهم ، وصار مستحقا لاسم الأدب ، وداخلا فى جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ، لتوهمهم أن الناس لا يتجرءون عليه ، ولا يقدر منهم على مسافات خواطره ، ومسبح إلهاماته ، إلا الذين أصفاهم ربهم بالفطن ، وأعانهم بتمام البصيرة ، من المنحوتين على مثالهم ، والمنتخبين من طرازهم ، ولكن ذلك على ما فيه من المناقضة للتاريخ الثابت ، والمعارضة للصريح من النصوص ، ليس بمغن عنهم شيئا ، ولا بنافعهم قليلا ولا كثيرا ، ولا هو من الأمانة الأدبية التى لا أظن أن التمويه بخلافها يروج على العقول فى أيامنا هذه ، ومع أن الشاعر نفسه قد أسقط عن الناس هذه الكلفة ، وأعفاهم من احتمال هذه المئونة ؛ باعترافه فى شعره ، وتصريحه لممدوحيه ، بأنهم أولى له ، وأفضل عنده من أهله الذين لم يشرف بهم ، ولا تناول ما تناول من المجد بأولهم ولا بآخرهم . وقد آثرنا أن نكتفى فى الاستدلال على ذلك بحياته فى مصر مدة انقطاعه لكافور . ونحب قبل تلخيص هذه الصلة ، أن نذكركم بتقدمة صغيرة لهذا الأمير ، الذى حظى من روائع المتنبي ، بما رفعه إلى مصاف العواهل من هامات الأمم ، وأفذاذ العالم . ثم عاد فألحقه بأحقر من الخشاش والخنازير ، وشتم معه مصر ، وأضحك من أهلها ، ومن جهلهم الأمم ، مما نريد أن نجعله مظهرا لأخلاق الشاعر وصفاته ، وما يتناسب مع ذلك من حسبه ونفسه .

والمعروف كما تقول الكتب . أن كافورا هذا كان عبدا أسود مخصيا ، مشقوق الشفة السفلى ، بطينا ، قبيح القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة ، وأنه دخل فى خدمة أبى بكر بن طغج وولديه الصغيرين ، فلما مات سيده ، تقيد الأسود بخدمة ولديه وخدمة أمهما . وقرب إليه من شاء . فتقرب إليه الناس ؛ من صغر همتهم ، وخسة أنفسهم . وسعى بعضهم ببعض ، حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره . وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ، وقد بلغ من أمره أن مَلك مصر والشام والحجاز ، بعد موت أبى الحسن على بن الأخشيد سنة ٣٥٥ وبقى فى هذه الولاية حتى مات سنة ٣٥٧ ، وفى خلال المدة من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠ اتصل به أبو الطيب . ولا يعنينا هنا أن نفيض فى وصف الحالة الاجتماعية فى البلاد المصرية ، فى ذلك الأوان ، وخلوّها من أهل البيوتات ، ومن ذوى العصبية ، حتى يخلص ملكها لهذا الخصى ، على ما أسلفنا من وصفهم له ، وتهكمهم به ؛ وإنما يهمنا من هذه الناحية أن يكون كافور على ذلك موضوعا لهذه المدائح العجيبة من المتنبى ، ومحلا لتفضيله إياه على أهله كما سنراه بعد . وأكثر الباحثين يرجحون أن المتنبى رحل إلى مصر مراغما لسيف الدولة ؛ لسآمته من طول مقامه معه ، ولم يمكنه مما كانت تصبو إليه نفسه ، من ولاية ثغر ، أو كورة من أعماله ، ولما أصابه منه ومن أهل مجلسه من التحميل والإعراض ؛ وكان يرى أنه لا يكون أثقل على قلبه مع أحد أبغض إليه من كافور ، عدوه ومنازعه فى ملكه ؛ وكان بالضرورة يطمع من كافور فيما خاب رجاؤه فيه عنده ، حتى صرح بغرضه هذا فى أول شعر أنشده كافورا ، فى مجلس ملكه ، وبين رجال دولته ، وهو قصيدته التى مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

يريد أن يقول : كفى بالمرض أن يبلغ بك إلى غاية من الإعضال وانقطاع الرجاء من الإفاقة ، ترى معها التخلص بالموت شفاء وراحة . وحسبك

شقوة فى الحياة ، أن تصل بك بلواك إلى أن تصير مُناك فى مَناياك ، حين لم تجد بين الناس صديقا ، ولا عدوًا يمكن أن يُساترك بالعداوة . ولقد تطير كافور من هذا المطلع وتشاءم به ، ولم يدر ما أوقع هذا الشاعر فى تلك الورطة ، مع شهرته المتعالمة ، وما يصف به نفسه من العلم والفهم والشعر ، وقد اعتذر عن ذلك بعضهم بقوله : إن ألمه لفراقه سيف الدولة ، سبق أمله فى كافور ، فقال ماقال ، وهو ما لا ينفى عن الشاعر هذه الهجنة القبيحة ، وفى هذه القصيدة يقول :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ ، تَوَارِكُ غَيْرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ ... وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

فَتًى ، مَا سَرَيْنَا فِى ظُهُورِ جُدُودِنَا ... إِلَى عَصْرِهِ ، إِلاَّ نُرَجِّى التَّلاَقِيَا

أَبَا الْمِسْكِ ، ذَا الْوَجْهُ الَّذِى كُنْتُ تَائِقًا ... إِلَيْهِ ، وَذَا الْيَوْمُ الَّذِى كُنْتُ رَاجِيَا

إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِىَ بِالنَّدَى ... فَإِنَّكَ تُعْطِى فِى نَدَاكَ الْمَعَالِيَا

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ... فَيَرْجِعَ مَلْكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا

أَبَا كُلِّ طِيبٍ ، لاَ أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ ... وَكُلِّ سَحَابٍ ، لاَ أَخُصُّ الْغَوَادِيَا

يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ ... وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

فتراه جعله بحرا ، ومن عداه ضحضاحا ووشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحمالق ، وأنه لا يبعد على زائره أن يرجع ملكا على العراقين ، وهى أمنيته التى اسخطه عدم تحصيلها ، على قضاء الله فى عباده ، وبقى طول عمره يُريغ الناس بكبريائه وهجائه لمن يعرف ولمن لا يعرف من الحسد والتبرم ، ويقول : إن الناس يفخرون بالمنقبة الواحدة ، من الكرم أو الشعر أو الشجاعة ، وأنت قد جمع الله لك المناقب ، وخصك بما تفرق فى الناس من المزايا ـ قال البديعى : وكان لا يجلس عند كافور بل ينشده وهو واقف ، وإن كافورا دس إليه من يقول له : قد طال وقوفك فى مجلسه ؛ ليعلم ما عنده ، فكان جواب أبى الطيب العالى الهمة كما يزعم

ويزعمون أن قال للأسود المشقوق الشفة كما سماه :

يَقِلُّ لَهُ الْوُقُوفُ على الرُّءُوسِ وبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ

قال : وعجيب أن يفعل ذلك بعد هذه الشهرة الطائرة ، ولم يكن كذلك عند سيف الدولة صاحبه ومنشئه ، وبعد ذلك أنشده قصيدته :

مَنِ الْجَآذِرُ فِى زِىِّ الْأَعَارِيبِ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ؟

ويقول فيها :

مَا أَوْجُهُ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجُهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِى الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

ثم يقول لكافور :

يُدَبِّرُ الْمُلْكَ مِنْ مِصْرٍ ، إِلَى عَدَنٍ ، إِلَى الْعِرَاقِ ، فَأَرْضِ الرُّومِ ، فَالنُّوبِ

إِذَا أَتَتْهَا الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهُبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ

وَلَا تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إِذَا شَرَقَتْ إِلَّا وَمِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ

ثم يقول :

قَالُوا : هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْغَيْثَ ، قُلْتُ لَهُمْ : إِلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالسَّآبِيبِ

إِلَى فَتًى تَهَبُ الدَّوْلَاتِ رَاحَتُهُ وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ .

فتراه هنا رفع كافورا إلى مراتب ما فوق البشر ، إذ جعله يتحكم فى قوى الطبيعة ، فيحول بارادته حدة الرياح الهوج إلى لين واستواء ، والشمس لا تغرب عن مصر إلا بإرادته وبعد أن تستأذنه ؛ ثم عرض بصاحبه القديم ولم يحفظ عهده ، وفضل عليه كافورا أيما تفضيل ، إذ جعله يعطى الممالك ولا يشوب عطاءه بما يكدره من المن . ويقولون : إن كافورا كان يكره أن يذكر لونه فى مدح أو ذم ، وكان ذكر السواد فى أذنه أشد من الموت ؛ ومن العجيب أن المتنبى كان يعلم

ذلك ولم تخل قصيدة من كافوريا ته ، من ذكر السواد تصريحا أو تلميحا ؛ وقد صرح به فى تهنئته له بدار بناها جاء فيها قوله :

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ ، لَيْسَ بِالْمِسْـــكِ وَلَـكِنَّهُ أَرِيجُ الثَّنَاءِ
نَزَلَتْ إِذْ نَزَلْتَهَا الدَّارُ فِى أَحْسَـــنَ مِنْهَا : مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ
حَلَّ فِى مَنْبِتِ الرَّيَاحِينِ مِنْهَا مَنْبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالْآلَاءِ
تَفْضَحُ الشَّمْسَ ، كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْـــسُ ، بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِى ثَوْبِكَ الَّذِى الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءٌ يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءِ
كَرَمٌ فِى شَجَاعَةٍ ، وَذَكَاءٌ فِى بَهَاءٍ ، وَقُدْرَةٌ فِى مَضَاءِ
يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِى كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي

فقد جعله يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود ، الذى جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمائل من شجاعة إلى كرم إلى ذكاء ، إلى رونق وبهاء واقتدار وعزم ، وأنه مطمح أنظار الناس من كل الأقطار ؛ وانظر إلى هذه القلادة البارعة :

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَا تَغْلَطُ الْأَيَّامُ فِىَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضاً تُنَائِي ، أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ ؟ !

ومنها يقول :

إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ أَهْلاً وَرَاءَهُ وَيَمَّمَ كَافُوراً ، فَمَا يَتَغَرَّبُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو الْمِسْكِ أَوْهُمُ فَإِنَّكَ أَحْلَى فِى فُؤَادِى وَأَعْذَبُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِى الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ
أَبَا الْمِسْكِ ، هَلْ فِى الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ ؟ فَإِنِّى أُغَنِّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفِّيْ زَمَانِنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفِّيْكَ تَطْلُبُ!
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

فتراه هنا أيضا ذكر الولاية وفى نظير ذلك كان كافور عنده أشرف من أبيه وأغلى عنده من أهله؛ وهذه لا نجدها عند حسيب يبيع أهله بنسيئة. وبعد هذه أنشده قوله - وقد كاد اليأس يشتد فى نفسه -: «مُنَى كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ» جاء فيها:

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الذى أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ؟
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلِي عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي: فَشَرَّقُوا وَغَرَّبْتُ، أَنِّي قَدْ ظَعَنْتُ وَخَابُوا
جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ وَأَنَّكَ لَيْثٌ، وَالْمُلُوكُ ذِئَابُ
وَأَنَّ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ
وَمَا كُنْتُ (لَوْلَا أَنْتَ) إِلَّا مُهَاجِرًا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ
وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةً فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

وانقطع بعد إنشاد هذه القصيدة، لا يلقى الأسود إلا أن يركب، فيسير معه فى الطريق، ثم عجل الرحيل، وقد أعد كل ما يلزم له على مرور الأيام بلطف ورفق، ولا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة فى المقام، وطال عليه التحفظ بخروج ودفن الرماح فى الرمال، وحمل الماء على الابل لعشر ليال، وتزود لعشرين، وقال فى يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هجريه قبل مسيره بيوم واحد:

«عيد بأية حال عدت ياعيد؟»

وهى أول أهاجيه فى كافور، وإنك ليتولاك العجب الشديد من هذه المناقضة السريعة. وجدير بكل أحد أن يحيره هذا الأمر الغريب: مديح مسرف

يرفع كافوراً إلى مالا يطمع فيه الملوك ، ولم يمدح بمثله أحد ، والى جانبه وعلى أثره ومن غير ذنب ولا ترة ، هجاء مقذع ، ينزل بالمهجو الى أحط من الخشاش والخنازير ! أيكون هذا جاريا على نوع من العبث والهزؤ ، أم هو جنون وإهتار ، أم خسة منبت ورداءة أصل ، أم يكون من قلة الحياء وعدم المبالاة على حد : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » ؟. إن الذين يفرضون هذا كله ، يجدون من عمل الشاعر مايحققه ويثبته ، ولا أدرى لماذا يعز على بعض الباحثين أن يكون المتنبي عظيما فى شعره ووضيعا دنيئا فى خلقه ، مادام هو الذى يعطى البرهان على هذه الضعة ؟ وهل سمعت بأن إنسانا يضع نفسه ، ويشرع للتهمة بابه ، وينصب لسهام القالة صدره ـ نفعه دفاع منتصر ، أو حمته محاولة متعصب ؟ وماذا يصنع الناس مع أعاجيبه ومدائحه الماضية بقوله :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضَيْفُهُمُ ... عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي، وَجُودُهُمُ ... مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ !

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْساً مِنْ نُفُوسِهِمُ ... إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ

مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وِكَاءُ الْبَطْنِ مُنْتَفِخٍ ... لَا فِي الرِّجَالِ وَلَا النِّسْوَانِ مَعْدُودُ

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السَّوْءِ سَيِّدَهُ ... أَوْ خَانَهُ ، فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ ؟

صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا ... فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ !

اَلْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ ... لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ ؛ ... إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

ثم يقول :

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرُمَةً ... أَقَوْمُهُ الْبِيضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ ؟

أَمْ أُذْنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ؟ ... أَمْ قَدْرُهُ وَهْوَ بِالْفَلْسَيْنِ مَرْدُودُ ؟

وَذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ عَنِ الجَمِيلِ، فَكَيْفَ الخِصْيَةُ السُّودُ؟

ولا نريد أن نعلق على هذا الكلام؛ فما نظن أن أحدا باقيا من أهل الأدب لم يقرأه، ولم يتعجب من فذاذته فى الإقذاع والإفحاش. ثم تراه يعارض أوله مدائحه فيه من القافية والوزن إذ يقول:

أُرِيكَ الرِّضَا لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا

أَمِينًا، وَإِخْلَافًا، وَغَدْرًا، وَخِسَّةً وجُبنًا؟ أَشَخْصًا لُحْتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا؟

أيصح أن يوضع هذا إلى جانب ما تقدم من قوله:

يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ المَعَانِيَا

وانظر بعد ذلك الى ما هو أغث وأبرد وأهجى وأشد، من قوله من قصيدته «الاكل ماشية الخيزلى»

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الخَصِيِّ م أَنَّ الرُّءُوسَ مَقَرُّ النُّهَى

فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيتُ النُّهَى كُلَّهَا فِى الخُصَى

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا

بِهَا نَبَطِيٌّ مِنَ أَهْلِ السَّوَا دِ يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الفَلَا

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ: أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْ كَدَنَّ م بَيْنَ القَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الوَرَى

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ وَأَمَّا بِزِقٍّ رِيَاحٍ، فَلَا

وَذَاكَ صَمُوتٌ، وَذَا نَاطِقٌ إِذَا حَرَّكُوهُ فَسَا أَوْ هَذَى

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالَا يَرَى

ولا نكرم هذا الشعر الساقط بأى تعليق أيضا، غير أننا ننهى كلمتنا هذه، بأن

نذكر الناس بما وقع بين زياد النابغة وبين ملوك الحيرة ، حين نفوه ، وأهدروا دمه ، فارتحل عنهم الى الشام ، وأقام مدة فى بلاد الغسانيين ، حافظا باقيا على وفائه وإخلاصه وقد لطفت فطرته ، ووقع بثقوب ذهنه وأعراقه ، على أكرم المعاذير ، وأجمل المقايسات ، فى منطق الحجة ، ومعرض العتب ، حتى صار بذلك مثلا للحفاظ والوفاء ، وهو القائل عند رغبته فى العودة إلى النعمان :

مُلوكٌ ، وإخوانٌ ، إذا ما أتيتهم أُحَكَّم فى أموالِهِمْ وأقرَّب
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شكر ذَلِكَ أَذْنَبُوا

ويلاحظ المؤرخون على أبى الطيب ، أنه لم يذكر مشاهد مصر فى شعره ، ولا أطرى عجائبها وآثارها ولا نيلها وجسورها ولا أهلها ونزلاءها إلا بهذا السخف التافه فى مثل ماقدمنا من قوله: وماذا بمصر . . . البيت ولعل فى هذه الحالة ، مايضع بعض الضوء على حياة امرىء القيس ، الذى جعل بعض باحثى زماننا عدم تعرضه لذكر القسطنطينية فى شعره ، من الأدلة على أسطورية تاريخه . وظاهر ان امرأ القيس هنا أعذر من المتنبي ؛ لأنه يطالب بملك مسلوب ، وأما هذا فيحاول الحصول على إمرة مغتصبة ، على أن لأهل مصر الذين قام نفر منهم بالأمس بتكريمه بعض السلوى عن شتمه إياهم ؛ لأنه ذمّ أهل الأرض جميعا قبلهم ، حين يقول :

وَدهْرٍ نَاسُهُ ناسٌ صغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَام
وَمَا أَنَا مِنْهُمُو بالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

وقوله أيضا وهو أشنع وأهجى وأدل على سوء الأدب والسخف :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ وَأَسْهَرُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ

وبعد ، فقد ترى أن أبا الطيب كان أشعر الناس ولكنه ـ عفا الله عنه ـ كان ألأمهم طبعا ، وأحطهم نفسا ، وأخسهم أصلا ، كما أراد لنفسه وكما حكى عنها . والله أعلم .

محمد هاشم عطية